الفصل الحادي عشر
غزوة حُنَيْنٍ والطائف
٦ شوال ٨ هـ - ٢٦ يناير ٦٣٠ م

المبحث الأول
ملخص الغزوة

لما أكرم الله المسلمين بفتح مكة، ظن زعماء هوازن وثقيف أن رسول الله سيتوجه إليهم بعد الانتهاء من أمر مكة، فعزموا على أن يبدؤوه بالهجوم، فأمّروا عليهم مالك بن عوف - وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة-، فأمرهم أن يسوقوا معهم إلى ميدان القتال أموالهم وأبناءهم ونساءهم ودوابهم، ليكون ذلك - بحسب وجهة نظره - أدعى إلى تثبيتهم وتشجيعهم في القتال، وقد بلغت عدة المشركين من هوازن وثقيف ما بين عشرين ألفًا إلى ثلاثين، فخرج إليهم رسول الله - مبادرًا - في جيشه الذي فتح به مكة، إضافة إلى ألفين من مكة الذين أسلموا حديثًا، إضافة إلى أناس من المشركين خرجوا حمية وطلبًا للغنيمة . فخرج كل من كان بمكة؛ أصحابه الذين قدموا معه في المعركة، ومن انضم إليهم بعد ذلك ممن أسلم حديثًا، وهنا اغتر بعض المسلمين بعددهم، وقالوا : " لن نغلب اليوم عن قلة"، وسار رسول اللهﷺحتى إذا كان في وادي حنين استقبلهم المشركون بالسهام فانفرط عقدهم، وفر أهل مكة والمسلمون الجدد، وبقي رسول الله ﷺثابتًا في الميدان يقول: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب"، وأخذ العباس - وكان جهوري الصوت - ينادي في المسلمين، فعاد إليه من كان مدبرا، وتجمع الجيش حتى استطاعوا أن ينتصروا كرة أخرى، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون. ولم يتوقف رسول اللهﷺ ليوزع الغنائم التي خلفها جيش العدو، بل توجه بجيشه، يلاحق فلول هوازن وثقيف الهاربة، حتى حاصرهم في عقر دارهم في الطائف، ولما طال الحصار، ورأى المسلمون مناعة الحصن، استشار النبي أصحابه ، وقرر المسلمون في نهاية الأمر رفع الحصار عن الطائف والتوجه لتوزيع الغنائم التي خلفها المسلمون في الجعرانة . تلك الغنائم التي شرع رسول الله في تقسيم أغلبها على المؤلفة قلوبهم، فجد الأنصار في نفوسهم من ذلك، فطيب خاطرهم

بكلمات بليغة، ثم جاء وفد هوازن مسلمًا فرد رسول الله إليهم أولادهم ونسائهم١.

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول : ثبات القائد لحظات النكسة :

فعن الْبَرَاءَ – وقد سَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ قَيْسٍ : أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ – فَقَالَ : لَكِنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ ..كَانَتْ هَوَازِنُ رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ انْكَشَفُوا فَأَكْبَبْنَا عَلَى الْغَنَائِمِ، فَاسْتُقْبِلْنَا بِالسِّهَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ آخِذٌ بِزِمَامِهَا وَهُوَ يَقُولُ : " أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِب " ٢

وهنا تبرز أهمية القيادة الإسلامية الشجاعة، والتي تُعدُّ قدوة للمقاتلين، " فلو كان على رأس جيش المسلمين قائد غير الرسول ﷺ، وكان من الهاربين، كما فعل قائد قوات المشركين، لكانت نتيجة المعركة مختلفة تمامًا"٣ .

وإنك لتبصر صورة نادرة حقاً لهذه الجرأة عندما تفرقت جموع المسلمين فى الوادى وقد ولوا مدبرين ، ولم يبق إلا رسول الله ﷺ وسط حومة الوغى حيث تحف به كمائن العدو التى فوجئوا بها ، فثبت ثباتاً عجيباً إمتد أثره الى نفوس أولئك الفارين من أصحابه، فعادت غليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش وقوة العزيمة٤ .

قال ابن كثير :" قلت : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم، فى حومة الوغى ، وقد إنكشف جيشه عنه، وهو مع هذا على بغلته ، وليست سريعة الجري ولا تصلح لفرّ ولا لكرّ ولا لهرب، وهو مع ذلك أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه –صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين –، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً بأنه سينصره ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر

---

١ انظر تفاصيل هذه الغزوة في : ابن هشام ٤/ ٨٠، والطبري ٣/ ١٢٥، وابن سيد الناس ٢/ ١٨٧، وابن كثير ٤/ ٣٢٢، وابن القيم : زاد المعاد ٢/ ٤٣٨، والمقريزي: ٤٠١.

٢ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، بَاب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى" وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ " (٣٩٧٥)

٣ أحمد راتب عرموش ١٤٢

٤ محمد سعيد رمضان البوطي ٢٩٠

الأديان "١ .

المطلب الثاني : تحريم قتل النساء والأطفال والأجراء في الحروب :

مر رسول الله يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس مجتمعون عليها، فقال رسول الله ﷺ: "ما كانت هذه لتقاتل" وقال لأحدهم: "أدرك خالدًا فقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا"٢.

ويدل هذا الحديث على حرمة قتل النساء والأطفال والأجراء في المعرك .. ويستثنى من ذلك الذين اشتركوا في القتال وباشروا في مقاتلة المسلمين ..

" فإنهم يُقتلون مقبلين ويجب الإعراض عنهم مدبرين"٣ .

المطلب الثالث : احترام الأرحام :

لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبي ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعد أن ناشدته ثقيف بالله والرحم أن يترك هذا العمل، فقبل النبي ﷺ في سماحة وأوقف أعمال تحريق البساتين ..

ووجه النبي ﷺ نداء لعبيد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي فأسلموا، فأعتقهم ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم ٤.

المطلب الرابع : الدعاء لهداية العدو :

لما قفل المسلمون عن الطائف، قيل: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف، فقال:

" اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم"٥ .

إن القائد في هذا الموقف ليؤكد على أن المسلم لا يدعو على الناس اللهم إلا لهدايتهم، كما أن دعائه هذا يبين أن الحرب في الإسلام لا تكون إلا من أجل الأمر بالمعروف والنهي

---

١ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٥

٢ ابن كثير : البداية والنهاية ٤/ ٣٣٥

٣ محمد سعيد رمضان البوطي ٢٩٢

٤ علي محمد الصلابي ٢/ ٣٩٩، أكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥١٠

٥ ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ٤٩٧

عن المنكر تحرص أشد الحرص على هداية الناس لا على هلاكهم .

المطلب الخامس : سياسة تأليف القلوب بالمال والكلام :

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ أُنَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ قَالُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنْ الْإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ! يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ . قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : فَحُدِّثَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِمْ فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ، رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ :

" مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ ؟ " .

فَقَالَ لَهُ فُقَهَاءُ الْأَنْصَارِ : أَمَّا ذَوُو رَأْيِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ قَالُوا : يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟ ! فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ " فَقَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا

قَالَ : " فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَثَرَةً شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ".. قَالُوا : "سَنَصْبِرُ "١ .

المطلب السادس : رد سبي هوازن إلى أهلهم :

عن مَرْوَانَ وَالْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَعِي مَنْ تَرَوْنَ وَأَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ : إِمَّا السَّبْيَ وَإِمَّا الْمَالَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِكُمْ " ..

وَكَانَ أَنْظَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنْ الطَّائِفِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ .

قَالُوا : "فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا".

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ :

---

١ صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه ١٧٥٣

" أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ . "

فَقَالَ النَّاسُ : قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ . " ..

فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺفَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا١ .

* * *

١ صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى" وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ "(٣٩٧٦)